الأخضري ومنهجه في متن العبادات
ـ عرض و وصف ـ

بقلم:
د / أكرم بلعمري
قسم أصول الدين
معهد العلوم الإسلامية – جامعة الشهيد حمه لخضر. الوادي

ملخص

أسهم الإمام الأخضري البسكري الجزائري في خدمة المذهب المالكي إسهاما كبيرا، ومن أجلّ إسهاماته: مختصره في متن العبادات على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه، حاولت هذه الورقات بيان منهجه فيه، من خلال التعريف بمؤلفه وبيان شيء من سيرته العطرة؛ وطريقة عمله فيه، وملامح منهجه العام، كونه حظي باهتمام بالغ من قبل العلماء، حيث كثرت المؤلفات حوله شرحا ونظما، كل ذلك للدلالة على أهميته البالغة في خدمة المذهب.

الكلمات المفتاحية:

المتن؛ العبادات؛ الفقه؛ المذهب المالكي؛ الإمام الأخضري البسكري الجزائري.

Abstract:

Imam Al-Akhdari Al-Biskari Al-Jazaery contributed greatly to the service of the Maliki school of thought, and among his most important contributions: Through its summary " Matn Al-Ibadat (worships)" on the school of Imam Malik bin

Anas (may Allah be pleased with him), and I have tried in these papers to explain his approach, by introducing it And the way he worked in it, and definition of it and the features of his general approach, as he received great attention from scholars, as books abounded around him, which indicates its great importance in serving the Maliki school.

Key words:

Matn; Al-Ibadat worships; fiqh; Maliki school; Imam Al-Akhdari Al-Biskari Al-Jazaery.

مقدمة:

تعدّ المدرسة الفقهية المغاربية من أشهر المدارس التي خدمت المذهب المالكي في الغرب الإسلامي من حيث التأليف والتدريس نشرا للمذهب وتمكينا له، ونظرا لتميّز المدرسة الفقهية الجزائرية بمفاخر كونها خلفت الكثير من التراث الفقهي الهائل المخطوط منه والمطبوع في شتى أنواع التصنيف الفقهي من منظومات ومختصرات وشروح وحواش؛ وتصنيف في النوازل والشروط وفي أصول الفقه وقواعده على مر العصور والأزمان، خاصة ما تميز به الجنوب الجزائري من حواضر علمية وعلى رأسها مدينة بسكرة[1]، لما كانت تشكله من قطب علمي بارز من خلال الحركة العلمية للمساجد والزوايا، برز فيها أحد الأعلام الأفذاذ الذين خلفوا تراثا علميا زاخرا ينم عن مُكنة علمية واقتدار واضح، نظرا لنشوئه في بيت علم وفقه وصلاح؛ إنه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأخضري.

فمن هو الشيخ عبد الرحمن الأخضري؟ ما ظروف تكوينه وتعليمه؟ وما هي أهم أطوار سيرته العلمية؟ وما دوره وما جهوده في خدمة المذهب ونشره

بالجزائر؟ و بم يتميز هذا المتن عن غيره من المتون الفقهية المغاربية؟ وما طريقته فيه؟ وما الجديد الذي يضيفه إلى التصنيف الفقهي المالكي؟.

ونظرا لتعلق المتن بفقه العبادات على المذهب المالكي و كثرة اهتمام العلماء به مشرقا ومغربا من حيث الشرح والنظم وهذا من شدة حظوته وقبوله مع وجازته وسهولته وجمعه في أقل عبارة وأفصح بيان؛ تأتي هذه الورقة إسهاما في التعريف بالشيخ عبد الرحمن الأخضري البسكري من خلال متنه وبيان ميزاته، من خلال الهندسة التالية:

- تقديم.
- التعريف بالمؤلف.
- اسمه ونسبه.
- مولده ونشأته.
- شيوخه وتلاميذه.
- وفاته.
- مؤلفاته.
- التعريف بمتن الأخضري.
- المؤلفات حول متن الأخضري.
- عرض المتن.
- ملامح عامة عن منهجه.
- الخاتمة.

أولا- التعريف بالمؤلف:

اسمه ونسبه:

هو العلامة الجزائري أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الشهير بالأخضري البنطيوسي، المالكي، المنطقي، البلاغي، المغربي، من علماء الجزائر في القرن العاشر الهجري (10هـ). [2]

مولده ونشأته:

تؤكد معظم المصادر المترجمة للشيخ -رحمه الله- على أن مولده في " بَنْطيوس " ونشأ بها في بداية حياته، وهي قرية من قرى بسكرة، وقد كان مولده سنة 920هـ/1514م على أرجح الروايات، إلا أن هناك اختلافا وتضاربا بسيطا في آراء مترجميه، فنجد من بعض من ترجموا له على أن سنة ولادته كانت 918هـ/1514م. ونشير إلى أن هذه السنة استدركها عادل نويهض في آخر معجمه، بعد أن أرخ لمولده في بداية معجمه على أنه ولد في سنة 910هـ/1504م .

غير أن هناك مصادر أخرى لم تطلعنا على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، وهذا ما نلحظه في كل من تعريف الخلف برجال السلف، شجرة النور الزكية، معجم المطبوعات العربية والمعربة، دائرة المعارف الإسلامية، واكتفى أصحاب هذه المصادر بالإشارة إلى أنه من أعلام القرن العاشر الهجري، وهذا نظرا لاكتناف الغموض لشخصية الشيخ عبد الرحمن الأخضري.

فالخلاف حول ميلاده ليس خلافا كبيرا كما هو جلي لدى العام والخاص، لكن إذ رجعنا إلى منظومته المسماة بـ"السلم المرونق" تأكدت لنا الرواية الصحيحة حول تاريخ ميلاده، إذ يقول في نظمه هذا:[3]

ولبني إحدى وعشرين سنة معذورة مقبولة مستحسنة

لا سيما في عـاشـر القـرون ذي الجهل والفساد والفنون

وكـــان فـــي أوائل المحـــرم تأليف هـــذا الرجـــز المنظم

مـن سنة إحـــدى وأربعيـن مـــن بعـد تسعة من المئيـــن

كما أنه أنجز المنظومة "القدسية" وهو في سن الأربع والعشرين، أي في سنة 944هـ، حيث قال في ختامها:

وفي أربع وأربعين قد نجز من عاشر القرون قل هذا الرجز

ومن هنا يتبين أن ولادته كانت سنة 920 هـ على أصح الروايات المذكورة آنفا، وربما هذا الرجز هو ما اعتمده بعض المؤرخين كمعيار أو كسند رسمي في إثبات سنة ولادته.

لقد نشأ الشيخ عبد الرحمن الأخضري نشأة علمية تميزت بالعلم والصلاح، فساعده محيطه على أن يتبوأ من العلم مقعدا مرموقا شغوفا بحُب العلم مسخرا حياته للعلم وحده .

ونلمس ذلك من خلال والده محمد الصغير الذي اكتنفه بالرعاية والتعليم والتربية، ساعده في ذلك فطانته وذكاؤه ومن ثم حرصه على المعرفة منذ حداثة سنه، إما بالاجتهاد والمثابرة وإما بالمطالعة والمذاكرة في شتى الفنون، فجمع بين العلوم العقلية والنقلية منها على حد سواء.[4]

ومن خلال رحلاته التي اكتسبت نضجا وإدراكا، وسفره إلى تونس وبالضبط بجامع الزيتونة ليكتمل المراد، فقد كان احتكاكه بالعلماء ومجالسته لهم، أثر بالغ في شخصيته فراح ينهل العلم من مشارب مختلفة جعلته ملما بالمعرفة، منكبا على فهمها واستيعابها، وما لبث أن عاد إلى بنطيوس ليشد الرحال مرة أخرى إلى قسنطينة، لما كانت تزخر به من جهابذة العلماء آنذاك فالتقى بعلمائها وتدارس

معهم وأخذ عنهم، بعدها رجع إلى بنطيوس واستقر بها وجعل من الزاوية التي أسسها جده "محمد بن عامر" مدرسة علمية ذات إشعاع علمي ساطع نوره في الآفاق؛ حيث اعتكف على التدريس وتلقين دروس العلم للطلبة وتخريج العلماء؛ فكانت بحق أكبر مدرسة علمية يشيدها الشيخ عبد الرحمن الأخضري وتجلب أنظار العديد من طلاب العلم، فراحوا يتوافدون من كل فج عميق من بقاع القطر، فكانت تصله الوفود الكثيرة فمثلا من نواحي: وادي ريغ (بضواحي المغير) من جهة الجنوب ومن قسنطينة ونواحيها، وكل من كانت له رغبة في تحصيل العلم .

وكما تذكر كتب التراجم أن للشيخ – رحمة الله عليه – خلوات معدودة بالجبال القريبة من بلدته، فقد كانت دافعا أساسيا لتأليف عدد من المؤلفات كالدرة البيضاء التي ألفها بجبل أحمد حدو، وأتم شرح علم البيان من كتابه الجوهر المكنون بجبل عياض، حيث نجده يقول في شرحه: "وكان الفراغ من هذا الفن عشية الجمعة المباركة آخر يوم من ربيع الثاني عام اثنين وخمسين وتسعمائة ببعض بلاد جبل عياض".[5]

شيوخه وتلاميذه:

لعل من أشهر المشايخ الذين تلقى عنهم الشيخ عبد الرحمن الأخضري أصول العلم وفروعه، ممن ذكرتهم مختلف كتب التراجم، نذكر:

1- جده محمد بن عامر الأخضري.[6]

2- والده محمد الصغير، وهو من المشتغلين بالعلم والتدريس، له حاشية على مختصر خليل[7] وشرح لما غمض من ألفية ابن مالك[8]، ومن العلوم التي درسها على والده الحساب والفرائض كما نص في شرحه للدرة في باب الوصايا[9].

3- أخوه الشقيق أحمد الأخضري، ومن المعلومات القليلة التي وصلت عنه أنه كان فقيهاً ورعاً زاهداً، و أنه اشتغل بالتدريس عن التأليف.[10]

4- الشيخ عبد الرحمن بلقرون: وهو رجل صالح من العلماء الزاهدين.[11]

5- الشيخ محمد بن علي الخروبي المتوفى سنة 963 هـ وهو عالم مشهور وأغلب مؤلفاته كانت مركزة على الأوراد والأذكار وعلوم التصوف.[12]

6- عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني المعروف بالشيخ الوزان المتوفى سنة 960 هـ – 1584م، وهو من علماء قسنطينة البارزين في القرن العاشر الهجري.[13]

أما أشهر تلاميذه نذكر منهم:

1- الشيخ أبو فارس عبد العزيز بن أحمد بن مسلم الفارسي له بعض الجهود المتعلقة بمؤلفات الأخضري وقصائده، و قد كان الأخضري يرسل إليه مصنفاته لينسخها له لينشرها على تلاميذه[14]، وهو شارح كتاب "السراج في علم الفلك" لشيخه الأخضري.[15]

2- الشيخ إبراهيم قدورة.[16]

3 – الشيخ عبد الكريم الفكون– الجد المتوفى سنة 988هـ جد عبد الكريم الفكون – الحفيد – المتوفى سنة 1073هـ –.

4 – طالب من بلدة تفلفل كان ينسخ كتب الأخضري، وقد وصفه الأخضري نفسه بأنه من خاصة إخوانه وأحبته في الله.

وغير هؤلاء كثير ممن لم تحصهم كتب التراجم، إذ لا غرابة أن يكون لعالم مثل الشيخ عبد الرحمن الأخضري متضلع في فنون شتى عدد كبير من التلاميذ وطلبة

العلم حتى ولو لم تفصح كتب التراجم عن أكثرهم ولم تحصهم عدا.

وفاته:[17]

وبعد هذا العطاء الكبير والمتنوع للشيخ عبد الرحمن الأخضري من تأليف للرجال ولعدد من المصنفات في شتى العلوم والفنون، ورحلات علمية صال وجال من خلالها من أجل تحصيل العلم، وتلك الخلوة والانعزال التي حببت إليه وكانت في بعض الأحيان سببا في تأليف العديد مصنفاته، توفي الشيخ رحمه الله بجهة "قجال"[18] بسطيف، ونقل جثمانه إلى " بنطيوس " وبها ضريحه.[19]

غير أن السنة التي توفي فيها في الشيخ عبد الرحمن الأخضري بدت غامضة بعض الشيء عند أكثر من ترجموا له، حتى أن بعضهم اكتفى بأن وفاته كانت في القرن العاشر الهجري، وعلى هذا الأساس نلاحظ تباينا واضحا في تحديد سنة الوفاة في جل المصادر التي ترجمت له غير أن الراجح منها هو 983هـ/1575م .. وهو ما ذهب إليه كل من حاجي خليفة والزركلي، وعادل نويهض، ومن قال بوفاته في هذه السنة استند إلى قول الشيخ في منظومته " الدرة البهية في الأجرومية":

وكان في محـــرم الحرام بدءا وختمنـا لـذا النظـام

في إحدى وثمانين سنة[20] من بعد تسعمائة مستحسنة

مؤلفاته: للشيخ رحمه الله مؤلفات كثيرة جدا – مما بلغنا عن طريق من ترجم له–، تزيد عن العشرين مصنفا، بين نظم ونثر في شتى أنواع العلوم العقلية والنقلية، نذكر منها على سبيل التمثيل:

- الجوهر المكنون في الثلاثة فنون: (البلاغة والبيان والبديع).
- السراج في الهيئة: في علم الفلك.

- الدرة البيضاء في أحسن الفنون والأشياء: وهي أرجوزة في الحساب.
- زهر المطالب في علم الإسطرلاب في هيئة الأفلاك والكواكب.
- شرح السنوسية: في العقيدة.
- السلم المرونق في علم المنطق[21]: وهي قصيدة من 142 بيتا.
- منظومة في قواعد الإعراب على كتاب مغني اللبيب.
- الدرة البهية في نظم الأجرومية.
- الفريدة الغراء: وهي نظم في العقيدة.
- المنظومة القدسية: وهي نظم في آداب السلوك.
- منظومة الأخضري في الرد على المبتدعة وأحوال المخلصين وصفات القلب للموحدين.[22]
- رسالة في التحذير من البدع.
- اللامية في النبي خالد بن سنان.
- اللامية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.
- التائية النبوية.
- مختصر في فقه العبادات: وهو موضوع كلامنا.

ثانيا التعريف بالمتن:

متن الأخضري هو متن مختصر في فقه العبادات، قصد به مؤلفه تقريب مباحث الفقه المالكي في خصوص العبادات لعامة الناس وخاصتهم، ليشمل أهم القضايا الفقهية التي يحتاجها المتعبد من أمور دينه، وراعى فيه جانب الدقة مع

الاختصار وعدم التطويل، حتى لا يصعب على المتعلم حفظه ودرسه وكذا تدريسه للناشئة وعموم الناس، ابتدأ فيه بمباحث الإيمان ففقه الطهارة فالصلاة فالسهو، دون مقدمة ليقصر ويسهل أخذه، وتراوح حجمه حدود أربعا وعشرين صفحة من الحجم المتوسط، وكتب له القبول فذاعت شهرته وانتشر بين الناس حتى كثر له الشارحون والمختصرون والناظمون والمحشون، تقريبا وتسهيلا له، كما يأتي بيان ذلك بعد حين، وقد طبع المتن عدة مرات منها طبعة الجزائر سنة 1324 هـ، ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر.[23]

ثالثا- المؤلفات حول المتن:

إن شهرة الشيخ عبد الرحمن الأخضري ومتنه في العبادات، جعلت القبول له فذاع واشتهر بين المشتغلين بالعلوم النقلية مشرقا ومغربا؛ من شنقيط إلى مصر مرورا ببلاد الجنوب، بين شارح له ومختصر وناظم له ومنتصر، نذكر منهم تمثيلا:

1- شرح صالح عبد السميع الأبي الأزهري[24] المسمى "هداية المتعبد السالك شرح مختصر الأخضري في مذهب الإمام مالك، وهو شرح أشبه بالحاشية تتبع فيه الشارح سياق المتن كلمة كلمة يشرحها مراعيا في ذلك التوسع في الشرح لكل ما يذكره صاحب المتن، مستصحبا الدليل من الكتاب والسنة للمسائل المذكورة مع نسبة الأقوال إلى أصحابها من السادة المالكية أو من أئمة الفقه، كما يذكر الخلاف في المسألة دون تطويل في ذلك، ولم يقدم له صاحبه بمقدمة يبين فيها سبب شرحه ولا منهجه فيه ولم يختمه بخاتمة إنما تتبع مسلك الشيخ رحمه الله في عدم وجود ذلك.

2- حل المسائل في شرح مختصر الأخضري بالدلائل للشيخ الحاج سعد بن عمر بن سعيد جِلْيَاتُوري الفوتي، من علماء سيقو مالي، وهو شرح لمتن العبادات للشيخ الأخضري في حوالي 120 صفحة، قام فيه شارحه ببيان مغلقات هذا المتن

والتدليل لما ذهب إليه الشيخ من الكتاب والسنة وليبين أن هذه الكتب الفقهية ليست إلا شروحا وتفاسير لأحكام الكتاب والسنة وإجماع العلماء، وقال عن سبب تأليف هذا الشرح الموجز أنه قد وقع في زمانه من بعض المتشدقين في أعراض أئمة الفقه الذي ألفوا تلك الكتب الفقهية، ففسقوا و بدعوا وكفروا كل من يشتغل في تعلم أو تعليم تلك الكتب الدينية [25]، قال:" فعزمنا بعد تردد وإحجام وتقهقر وإقدام، لما فينا من ضعف وقصور، وعجز وفتور أن نجمع شرحا وجيزا لمختصر الأخضري للشيخ عبد الرحمن الأخضري أجزل الجواد العلي ثوابه، بعدد قليل من دلائل وفروع ومسائل نقلا عما قاله في مثلها العلماء الأوفياء، وما قرره في نظائرها المحدثون والفقهاء الأمناء، ونبين أن الكتب الفقهية ليست إلا شروحا وتفاسير لأحكام الكتاب والسنة وإجماع العلماء ... ".[26] وميزة هذا الشرح أنه جمع الأدلة لكل المسائل التي ذكرها الأخضري من دون تطويل.

3- المورد العنبري على المنظومة المسماة بالعبقري في حكم السهو في الصلاة لمؤلفه السيد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر التواتي التلاني الشنقيطي، وهو تعليق على منظومة العبقري في نظم سهو الأخضري للشيخ العلامة محمد بن أب بن حميد بن عثمان بن أبي بكر المزمري عاش في القرن الثاني عشر للهجرة، نظمه في شهر ربيع الثاني سنة 1128هـ، في حوالي 159 بيتا، طبع طبعة ثانية على نفقة أبو عامر محمد بن أحمد [27]، في 55 صفحة من الحجم المتوسط، يقول مؤلفه أنه أجاب في تأليفه بعض الإخوان الذين سألوه تأليفا يشرح فيه نظم باب السهو للأخضري. [28]

الذي يقول في مطلعه: [29]

الحمـــد لله الجـــزيل النعـــم ... مرشد من عن سبيل الحق عم

ثم صلاة الله يتلــوها السلام ... على رسول الله سيــد الأنام

وبعــد فاعلم أنــي قصــدت ... إنجــاز ما كنــت به وعــدت

من نظم سهو الشيخ الأخضري ... معتــذرا لكـــل لوذعــي

من فرط جــهلي وقصور فهمي ... وخطــرات لا تــزال تهمي

إلى أخر الأبيات في هذا النظم الجليل التي يقول فيها: (30)

نظمي المسمى العبقــري في شهر ... مولـــد سيــد الورى الأغر

سنــة عشــريــن يليها ألــف ... ومائـــة مــع ثمــان تقــف

أبياته الجــم جــذاها الميمون ... قــل مائة وتســعة وخمسـون

بــه انفـــع اللــهم من قـــراه ... ومــن بناظـــر الرضـــا رآه

وحطه من شر حســود باخي ... وءافــل نور حجاه طامــس

وناظــر لــه بعــين الســخط ... وزاعم الخطايا وهو المخــطي

واغفــر لنا واغفــر لوالــدينا ... واغفــر لمــن علــمنا آمينا

بجاه أحمــد الوجيه المصطفى ... ذي المجد والقدر العظيم والوفا

صلى وسلم الإله ذو الجلال ... عليه والأزواج والصحب والآل

4- وللشيخ عبد الله بن محمد بن آب، نظم لباب السهو، يقع في مائة وتسعة وخمسين (159) بيتا سماه "العبقري في نظم سهو الأخضري"، ولم أقف عليه.

وهناك شروح أخرى لهذا المتن نذكر منها:

5- شرح عبد اللطيف المسبح المسمى "عمدة البيان في عروض الأعيان".

6- شرح عبد الكريم الفكون – الجدّ- المسمى" الدرر على المختصر".

7- شرح أحمد بن يعقوب وهو شرح لطيف ناسخه إبراهيم الزقاق سنة 1160هـ.

8- نظم متن الأخضري للعلامة عبد الله بن أحمد بن الحاج حمى الله القلاوي الشنقيطي ت1208 هـ، وهو في 277 بيتا شعريا، طبع في دار ابن حزم بيروت الطبعة الأولى 1430 هـ أشرف على تحقيقه أمين محمد المصطفى عبد الصمد.

رابعا متن الأخضري: عرض مضموني.

1 – في المقدمة بدأ بفصل الإيمان وبما يجب على المكلف معرفته من أمور تصحيح الإيمان والعقائد كما هو دأب السادة المالكية في مصنفاتهم، ثم عرج إلى ما يتعلق بالآداب الإسلامية وأنواعها، وما يجب عليه من ترك المحرمات ونحوها؛ من كذب وغيبة ونميمة وكبر وعجب ورياء وسمعة وحسد وبغض وهمز ولمز ورؤية فضل على غير، ... والتوبة وشروطها، وحفظ الجوارح وبعدها عن ما لا يليق بها، خاتما مقدمته الموجزة بالدعاء بالتوفيق و اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم وطلب شفاعته.

2 – فصل الطهارة وفيه تقسيم الطهارة لطهارة الحدث وطهارة الخبث، ثم النجاسة وشروط إزالتها، ثم الوضوء وفرائضه وسننه وفضائله ونواقضه وما لا يجوز دون وضوء كصلاة وطواف ومس مصحف إلا لتعليم.

وبعدها بدأ في الحديث عن الغسل وما يتعلق به من فرائض وسنن وفضائل معرجا على موجباته.

ليدخل في الحديث على التيمم بفرائضه وسنن و نواقضه.

3 – فصل الحيض: ويبدأ بتقسيم النساء في أحواله إلى ثلاثة أقسام: مبتدأة ومعتادة وحامل بدأ في بيان تقدير أيام الحيض لهن، مع التأكيد على ما لا يحل

للحائض فعله من صلاة وصوم وطواف ومس مصحف ودخول مسجد، وبيّن أن عليها قضاء الصوم دون الصلاة، وأن الزوج لا يحل له إتيانها وفق ما قررت الشريعة.

4 – فصل النفاس: فبعد تمام حديثه عن الحيض وما يتعلق به دلف لبيان ما يتعلق بالنفاس لشبهه بالحيض فيجري فيه ما جرى في الحيض، فبين أكثر مدته وجعلها ستين يوما، وبين أحوال انقطاع الدم عن المرأة وعودته إليها.

5 – بعد تمامه من الحديث عن الطهارة وما يتعلق بها بدأ بالحديث عن الصلاة وأول ما يتعلق بها هو دخول وقتها، فبدأ بسرد أوقات الصلوات المفروضات مبتدئا بصلاة الظهر كونها أول صلاة، وبين أن وقتها المختار من زوال الشمس إلى آخر القامة، وأكمل سائر أوقات الصلوات الأخرى مبينا وقتها الاختياري ووقتها الضروري؛ مبينا عظم ذنب مؤخر الصلاة عن وقتها بلا عذر شرعي، مع بيانه لوقت نهي صلاة النوافل من بعد صلاة الصبح إلى ارتفاع الشمس، وبعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب، وبعد طلوع الفجر، وعند جلوس الإمام على المنبر وبعد الجمعة حتى يخرج من المسجد وفق ما عليه السادة المالكية.

6 – بعد تمام سرد أوقات الصلوات والى بالحديث عن شروط الصلاة، فعقد فصلا لذلك فقال:" فصل في شروط الصلاة"، وأولها الطهارة بنوعيها، طهارة الحدث وطهارة الخبث من البدن والثوب والمكان وستر العورة واستقبال القبلة وترك الكلام وترك الأفعال الكثيرة، ليعود للحديث عن العورة مبينا بالتفصيل عورة الرجل وعورة المرأة وما يجب ستره، مع بيان حال التعرض للنجاسة؛ مؤكدا على حرمة تأخير الصلاة لعدم الطهارة، خاتما هذا الفصل بحكم إخطاء القبلة وإعادة الصلاة في الوقت.

7 – في هذا الفصل بدأ بسرد فرائض الصلاة مبتدئا بنية الصلاة المعينة، فتكبيرة

الإحرام فالقيام لها فالفاتحة فالقيام لها فالركوع فالرفع منه فالسجود على الجبهة فالرفع منه، والاعتدال والطمأنينة والترتيب بين فرائضها، فالسلام فالجلوس الذي يقارنه. ليستدرك في خاتمة الفرائض أن النية يشترط فيها المقارنة لتكبيرة الإحرام.

– وبعد الفرائض بدأ بتفصيل سنن الصلاة سنة سنة، مبتدئا بالإقامة وخاتما بالسترة لغير المأموم وقال أن " أقلها غلظ رمح، وطول ذراع طاهر ثابت غير مشوش ".(31)

– وبعد السنن يأتي حديثه عن فضائل الصلاة: وعدّها فضيلة فضيلة بادئا برفع اليدين عند تكبيرة الإحرام حتى تقابلا الأذنين، خاتما ببيان ما يكره من الالتفات في الصلاة وتغميض العينين والبسملة والتعوذ في الفريضة مع تجويزهما في النفل، ... إلى غير ذلك من المكروهات.

8 – وفي فصل عقب فصول شروط الصلاة وفرائضها وسننها وفضائلها خصه للخشوع في الصلاة، وبيّن أن للصلاة نورا عظيما تشرق في قلوب المصلين لا يناله إلا الخاشعون، ليبين أن الصلاة ليست عملية آلية، إنما هي استحضار للقلب مع الخشوع والتدبر في كل حركة وكلمة فيها، ويحسن بنا نقل كلامه هنا لبلاغته وحسن تأثيره في القلوب، قال رحمه الله:" للصلاة نور عظيم تشرق في قلوب المصلين، ولا يناله إلا الخاشعون، فإذا أتيت إلى الصلاة ففرغ قلبك من الدنيا وما فيها، واشتغل بمراقبة مولاك الذي تصلي لوجهه، واعتقد أن الصلاة خشوع وتواضع لله سبحانه، بالقيام بالركوع والسجود، وإجلال وتعظيم له، بالتكبير والتسبيح والذكر، فحافظ على صلاتك فإنها أعظم العبادات، ولا تترك الشيطان يلعب بقلبك ويشغلك عن صلاتك حتى يطمس قلبك ويحرمك من لذة أنوار الصلاة، فعليك بدوام الخشوع فيها فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ بسبب

الخشوع فيها فاستعن بالله فإنه خير مستعان".[32]

9 – وفي فصل موال لفصل الخشوع في الصلاة تحدث فيه عن القيام للصلاة وما يجب على القادر من ذلك وما لا يجب على غير القادر لذلك، وفصل الحديث في أحوال الاستناد في الصلاة مع القدرة و عدمها، وصلاة العاجز على الجنب الأيمن فإن لم يقدر فعلى الأيسر فإن لم يقدر فعلى ظهره، وختم هذا الفصل بأن النافلة يجوز على القادر على القيام أن يصليها جالسا، وله نصف أجر القائم، ويجوز أن يدخلها جالسا ويقوم بعد ذلك، أو يدخلها قائما ويجلس بعد ذلك؛ إلا أن يدخلها بنية القيام فيها، فيمتنع جلوسه بعد ذلك.[33]

10 – أما الفصل الأخير في الصلاة فخصصه لقضاء الفوائت، وأكد فيه على وجوب قضاء ما في الذمة من الصلوات، ولا يحل التفريط فيها، ويجب قضاؤها على نحو ما فاتته، إن كانت حضرية قضاها حضرية، وإن كانت سفرية قضاها سفرية ... إلى غير ذلك من أحكام الفوائت، ليختم فصل الفوائت بالتذكير بعدم جواز التنفل لمن عليه فوائت بصلاة ضحى، أو قيام رمضان، مع جواز الشفع والوتر والفجر والعيدين والخسوف والاستسقاء، مبينا أن من نسي عدد ما عليه من القضاء صلى عددا لا يبقى معه شك.

11 – وخاتمة هذا المتن كانت بباب في سجود السهو: وهو باب طويل مقارنة مع ما سرده المؤلف في الفصول السابقة المتعلقة بالطهارة والصلاة، فابتدأ هذا الباب ببيان سنية سجود السهو، مع التفصيل في أحكام النقصان من الصلاة والزيادة فيها، والنقصان والزيادة معا، ونسيان السجود القبلي حتى التسليم، ونسيان السجود البعدي، ونقصان الفريضة لا يجزيه السجود، ونقصان الفضائل لا سجود فيها، والقبلي لسنتين، والسنة الواحدة لا سجود فيها إلا السر والجهر، والكلام سهوا فيه سجود بعدي، وهو لمن سلم من ركعتين ساهيا، والزيادة في

الصلاة بركعة وركعتين ففيها بعدي، مع بطلان من زاد مثل الصلاة، والشك في النقصان نقصان، وحال من عليه وسوسة، ولا سجود لمن جهر في القنوت أو زاد السورة في الركعتين الأخيرتين، والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم- في الصلاة، ونعاس المصلي وأنين المريض، ومن وقف في القراءة ولم يفتح عليه، ومن جال فكره في أمور الدنيا دون مبالغة، ومن دفع الماشي بين يديه، وغلبة القيء، كل ذلك لا سجود فيه.

ليذكر بعدها بأن سهو المأموم يحمله الإمام، ومن سها عن الركوع أو السجود أو زوحم عليهما حتى قام الإمام أو رفع، وطمع في إدراك الإمام، تبع الإمام وقضى ما عليه، ومن جاءته عقرب أو حية فدفعها فلا شيء عليه إلا أن يبالغ أو يتحول عن القبلة.

وبعد هذا عرج إلى تفصيل أحوال سهو المسبوق، وعاد للحديث عن نسيان الركوع وتذكره في السجود، ونسيان السجود وتذكره في بعد القيام.

وبين أن السهو في صلاة القضاء كالسهو في صلاة الأداء، والسهو في النافلة كالسهو في الفريضة، ومثل لبعض الحالات في النسيان في النافلة كنسيان الفاتحة، أو السورة، أو ركن كالركوع والسجود وفصل في كل ما يقول.

بعد ذلك شرع في بيان سهو الإمام بالزيادة والنقصان فعلى مأمومه التسبيح به، وعليه متابعته بعد تسبيحه به إن قام الإمام من ركعتين، وأتم الشيخ الأخضري تفصيل كل أحوال سهو الإمام وحال مأمومه معه في ذلك كله.

خامسا- ملامح عامة من منهج الأخضري في متن العبادات:

1- قيامه بتقسيم المتن إلى فصول، في كل فصل يتحدث عن باب معين متعلق بالطهارة والصلاة أو السهو، ومثاله: " فصل الطهارة ..."، " فصل فرائض

الوضوء ..."، " فصل فرائض الصلاة ..."، وهكذا في سائر المتن.

2- إجمال المسألة ثم بيان تفصيلها ومثاله: "فصل للصلاة المفروضة سبعة أحوال مرتبة" وبدأ بتفصيل هذه الأحوال التي تؤدى عليها الصلاة من حيث القيام والاستناد والجلوس، وفي " فرائض الوضوء سبع ..." وراح يعدها فرضا فرضا، وفي فصل الحيض فإنّه عدد أنواع النساء في الحيض من مبتدأة ومعتادة وحامل وبعدها راح يسرد تفاصيل كل واحدة.

3- ورود المتن في عبارة موجزة وسهلة ومختصرة دون تطويل ممل أو اختصار مخل، ليسهل تعلمه وحفظه وتدريسه للطلبة والناشئين، بحكم توجيهه بالدرجة الأولى لطلبة العلم في الزاوية وغيرها.[34]

4- التفصيل فيما يجب التفصيل فيه كما في باب السهو لدقته وتعدد أحواله، والإيجاز فيما يجب فيه الإيجاز كباب الحيض والنفاس، فإنه لم يطل فيهما كثيرا لوضوحها وسهولة إدراكهما.

5- قلة الاستدلال وندرته في المتن في جميع مباحثه باعتباره متنا مختصرا لا يراد به الطول، إلا في موضع واحد حينما تحدث عن حرمة طلب رضى المخلوقين بسخط الخالق، فإنه استدل بقوله تعالى:" والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين "[35]، وبحديث النبي ﷺ:" لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ".[36]

6- بيان ما قد يشتبه على المتعلم معرفته من مسائل تتعلق بالعبادة، كقوله في فصل سنن الغسل:" غسل صماخ[37] الأذن، وهي الثقبة الداخلة في الرأس ...".

7- خلو المتن من إيراد الخلاف الفقهي في مسائل العبادات سواء داخل المذهب أم بين المذاهب الأخرى؛ تيسيرا على الدارس وعدم شغله بالتطويل في مسائل الخلاف.

8- إبداء الأظهر فيما يظهر من خلاف، ومثاله في مسألة تكرر قراءة الفاتحة في سجود السهو قال:" ومن كرر الفاتحة ساهيا سجد بعد السلام، وإن كان عامدا فالظاهر البطلان...".(38)

خاتمة:

وبعد هذا العرض الموجز لمتن العبادات للشيخ عبد الرحمن الأخضري والتعريف بهما نخلص للنتائج الآتية:

- لقد كان للبيئة الثقافية في بسكرة أثر في التكوين العلمي والتحصيل، للشيخ الأخضري ساهمت في إعداده وتكوينه ونبوغه في شتى الفنون والعلوم.

- وكان للنبوغ العلمي للشيخ أثر في كثرة الآخذين عنه وتعددهم، مع كثرة التأليف في شتى العلوم.

- حرص الشيخ رحمة الله عليه على تعليم الناس وتوعيتهم بأمور دينهم، وتجلى ذلك من خلال اتخاذ زاوية جده لتفقيه الناس وتعليمهم، وتقريب مسائل العبادات من خلال هذا المختصر والمنظومات الأخرى له في شتى الفنون.

- نهج الشيخ في مختصره منهج السادة المالكية في تقريب مسائل أصول الدين تثبيتا للعقائد، ومن ثم تلقين الناس أمور العبادات.

- كما راعى في متنه جانب تقصير العبارة وإيجاز اللفظ حتى لا يطول على الدارسين ويصعب أخذه.

- رتب أبواب المتن كما هو مألوف ترتيب مؤلفات المالكية، بدءا بأبواب الإيمان، ثم أبواب الطهارة، ثم تفاصيل الصلاة ...

- يظهر من خلال المتن أن الشيخ رحمه الله لم يكمل متنه لعارض من العوارض، أو أنه قصد ذلك تسهيلا على الناس وتجنبا للتطويل.

– كما أنه لم يقدم لهذا المتن بمقدمة وكأنه راعى بيان ما يجب على المكلف معرفته أولى من كل كلام لهذه المناسبة.

– تعدد المؤلفات وتنوعها حول هذا المتن زادته شهرة وذيوعا، ذيوع صاحبه وشهرته في مختلف أنواع الفنون.

وفي الأخير نسأل الله العلي القدير أن ينفعنا بهذا المتن الجليل، ويثقل موازين صاحبه يوم الدين، ويختم بالصالحات أعمال المتقين، وصل اللهم وبارك على سيد الأولين والآخرين، وعلى من استن بسنته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحواشي والإحالات:

[1]– ومن أعلامها: أحمد بن محمد بن علي أحمد الليباني – وهي قرية قرب بسكرة– ثم البسكري المالكي، ويعرف بابن فاكهة، له ترجمة في الضوء اللامع للسخاوي.

– أبو ذؤيب الهذلي: ابن خويلد بن محرث بن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل البسكري، له ترجمة في إكمال الكمال لابن ماكولا، 1/459.

– ابن مزني، ناصر بن أحمد البسكري، مؤرخ توفي 823هـ، له ترجمة في الاعلام للزركلي: 7/347.

– أبو القاسم الهذلي البسكري، متكلم توفي 465هـ، الاعلام 8/242.

– الشمس أبو جعفر البسكري، محمد بن محمد بن عمر بن عنقة، عالم بالقراءات، توفي 804هـ، له ترجمة في الضوء اللامع.

([2])– حاجي خليفة: كشف الظنون، 2/998، عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 14–16، الأعلام للزركلي: 3/331، عمر كحالة: معجم المؤلفين 5/ 187، وهناك كتاب لأبن أخيه: أحمد بن داود الأخضري، العقد الجوهري في التعريف بالأخضري، لم أقف عليه، اطلع على مخطوطه الدكتور أبو القاسم سعد الله، ونقل منه في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي.

[3]– العلامة الأخضري: متن السلم المنورق، تصحيح بلال النجار، د م ن، ص 8.

([4]) – حمدادو بن عمر، تراث الشيخ عبد الرحمن الأخضري من خلال بعض خزائن المخطوطات والمكتبات، موقع الشهاب، http://www.chihab.net بتصرف يسير.

([5]) – عبد الرحمن الأخضري، شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون، حمدادو بن عمر: مرجع

سابق.

([6]) _ تاريخ الجزائر الثقافي: 1/ 500.

([7])_تاريخ الجزائر الثقافي: 1/ 500.

([8]) – تاريخ الجزائر الثقافي: 2/ 162 – 163.

([9])– أبو محمد أحمد بن داود الأخضري: العقد الجوهري: 135 – 136 نقلا عن تاريخ الجزائر الثقافي 1/500.

([10])– المصدر السابق.

([11])– بوزياني الدراجي: عبد الرحمن الأخضري، العالم الصوفي، د م ن، 2009م، ط2، ص 25.

([12])– تاريخ الجزائر الثقافي: 1/ 498 – 500.

([13])– تاريخ الجزائر الثقافي: 1/ 384، 500، بوزياني الدراجي: عبد الرحمن الأخضري، ص25.

([14])– " العقد الجوهري: 137 – 138 نقلا عن تاريخ الجزائر الثقافي.

([15])– بوزياني الدراجي: الأخضري العالم الصوفي، ص 26.

([16])– تاريخ الجزائر الثقافي: 2/ 151.

([17]) – حمدادو عمر، مرجع سابق، موقع الشهاب أون لاين.

([18])– وهي الآن بلدية من بلديات ولايات سطيف على طريق باتنة، تبعد بحوالي 13 كلم عن عاصمة الولاية.

([19])– بوزيان الدراجي: الأخضري، ص 47.

([20])– وهناك من رجح وفاته في سنة 953هـ كالدكتور أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي، وبوزيان الدراجي في كتابه الأخضري العالم الصوفي ص 14، بناء على احتمال التصحيف في قول الشيخ عبد الرحمن الأخضري "في إحدى وثلاثين" بدل ثمانين، مستندين بعدم وزن البيت الشعري لو كانت "ثمانين"، وعلى هذا يكون عمر الشيخ حينما توفي بين 33 سنة و65 سنة، على قولي ولادته سنة 918هـ و 920هـ ووفاته بين سنتي 953هـ و983هـ، والله أعلم.

([21])= شرحه أحمد الدمنهوري 1192هـ، المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، 1/75.

([22])– توجد منها نسخة خطية وهي عندي مصورة، في مكتبة المخطوطات في جامعة الرياض تحت رقم: 2062، تاريخ نسخها ق 13 هـ.

([23]) – وعليها كان العمل.

([24])– صاحب كتاب "الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة أبي زيد القيرواني".

([25])– الشيخ الحاج سعد بن عمر بن سعيد جلياتوري الفوتي: حل المسائل في شرح مختصر الأخضري

بالدلائل، د م ن، ص 3.

([26])– المرجع السابق: ص 4.

([27])– موجودة نسخة منه بزاوية كنته بأدرار.

([28])– عبد الله بن أحمد بن آب: المورد العنبري على المنظومة المسماة بالعبقري، ط 2، دت، ص 2.

([29])– المرجع السابق: ص 3.

([30])– المرجع السابق: ص 50.

[31]– الأخضري: متن العبادات، ص 13.

[32]– متن العبادات ص 14.

[33]– متن العبادات: ص 15.

[34]– أغلب مؤلفات الشيخ عبد الرحمن الأخضري كانت استجابة لتقريب مختلف العلوم العقلية والنقلية للطلاب، قصد تسهيلها عليهم وهذا ما يبدو في بعض المنظومات التي ألفها في النحو والأدب والمنطق والحساب والفلك والسيرة وفقه العبادات.

[35]– سورة التوبة: الآية 62.

[36]– رواه الإمام أحمد بلفظ " لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ" عن علي رضي الله عنه، 3/47، أما بهذا اللفظ فقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه 12/546 عن الحسن، وأصل الحديث في الصحيحين، فقد أخرجه الإمام البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، 9/86، والإمام مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، 3/ 1469.

– متن العبادات: ص 3.

[37]– جاء في لسان العرب لابن منظور: " الصِّماخُ من الأُذن الخرقُ الباطن الذي يُفضي إلى الرأس تميمية والسماخ لغة فيه ... والجمع أصمخة وصُمُخٌ "، 3/34.

[38]– المتن: ص 18.